ينسى جبل أبو غنيم، المنطقة الفلسطينية التي يعمل الإسرائيليون على استيطانها، ويعطيها مسبقاً الاسمَ الإسرائيليَّ المقترحَ وهو: «هارحوما». كما ينسى سورَ الحرم الشريف، ويكتفي بالحديث عن «نفق أَثَري». وواقع الأمر أنّ السلطة الفلسطينية، كما «علماءَها الكبار»، تحوّل فلسطين كلّها إلى متحفٍ للأثريات لا حرمةَ له، متحفٍ من نوع خاص، يشتري الزائرُ منه ما يشاء، ما دام يدفع المبلغَ المطلوب.

*

لقد صرح شمعون بيريس، وهو يتحدث عن «القيادة الفلسطينية» بعد توقيع اتفاق أوسلو، قائلاً: «هم الذين غيَّروا مواقفهم، لا نحن». والقول صحيح، لأنّ الصهيوني لا يزال، مثلما كان، صهيونياً، يحتفظ بأحلامه وأمانيه، على نقيض «الفلسطيني الآخر» الذي سلّع الأحلام كلها، أملاً في أن يصل، ذات يوم، إلى حشو الذاكرة الفلسطينية بقشٍ إسرائيلي، فيكونَ على الفلسطيني أن يعتنق التصورَ الإسرائيليَّ للأرض والتاريخ، وأنْ يؤمن بأنّ التاريخ الفلسطيني الماضي كان تاريخاً إرهابياً، وأنّ ما جاء يوماً على قلم خليل السكاكيني ونجيب نصّار ومعين بسيسو دعوةٌ إلى العنف والإرهاب، وأنّ ناجي العلي إرهابيٌّ بامتياز لأنه سَخِر من «السلام» الإسرائيلي وسَخِرَ من الإداري الفلسطيني الذي يظن نفسه قائداً، وأنّ شهداء صبرا وشاتيلا جديرون بما أصابهم لأنهم تعاونوا مع جماعات إرهابية... بل على الفلسطيني أن يؤمن بأنّ على الفلسطينيين أن يلعنوا جميع شهدائهم، لأن هؤلاء لم يكونوا إلا حفنةً من الإرهابيين أرّقوا الإنسانَ الإسرائيليَّ المسالم وصاحبَ «الحق الشرعي الوحيد» في فلسطين!

يقول خوان غويتيسولو في كتابه **دفاتر العنف المقدس**: «بعد اتفاقيات أوسلو ركّز الإسرائيليون على إكمال حلمهم على حساب كابوس الفلسطينيين. هذا الأمل يكشف عن خداع كامل. ذلك لأنّ الاعتراف بالهوية الفلسطينية، وبحقّ الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة وديمقراطية، هو الذي يمكن أن يُنهي في يوم من الأيام كابوسَ الشرق الأوسط». ولكنْ كيف يَقْنع الفلسطينيُّ المأخوذُ باللغة العبرية بأن يعود إلى لغته، أو بأن يقبلَ بأفكار مثقف يكتب باللغة الإسبانية؟ فمثلما تُنتج بعضُ الأجساد أمراضَها، أفرز الجسدُ الفلسطيني ما يشدّه إلى مرضٍ مهلكٍ أو أفرز هلاكاً يكاد أن يَقْرض الجسد ويقوِّض أركانه.

فلسطين (دمشق)

هادي العلوي... وداعـــا

يرحل هادي العلوي وأحلامه النبيلة والحزينة، فلا عاد الى العراق، ولا العراق عاد إلى أهله، ولا الأهل عادوا الى أحلامهم البسيطة. يرحل هادي الذي حلم بيوم يؤمّن للطفل كساءه، وللمريض دواءه، وللجاهل كتابه، وللرأي الصائب والحرّ فسحةً كاملةَ الإنارة.

يطوي الموتُ مثقفاً حلم بمثقف يكون للأمة ضميراً، وللحق صوناً، وللخير نصيراً، مثقفٍ يسمّي الأشياء بأسمائها: فالصهيونية احتلال، والعولمة الجديدة استعمار، والتطبيعُ الثقافي خيانة، والدفاعُ عن هوية الأمة واجب. يطوي الموتُ مثقفاً عراقياً نبيلاً رفع رايات الفارابي والشيرازي؛ واتّخذ من أبي العلاء المعري صديقاً؛ ومن أبي ذرّ الغفاري زميلاً وصاحباً؛ ومن كارل ماركس أنيساً يطرح عليه أسئلة الفقراء ثم يعود الى ديارهم كي يتأكّد من صواب الإجابة أو خطلها.

ربّما رأى البعضُ في هادي العلوي، ولاسيّما في سنواته الأخيرة، مثقفاً ماضوياً ينتمي الى زمن مضى وأحلامٍ قضت. ولكنْ لم يكن في هادي من الماضوية شيء، بل كان فيه ذلك الضميرُ الذي لا يُباع، بل يدرك أنّ اختلاف الكلمات لا يغيّر من جوهر الوقائع شيئاً؛ فالجوع قائم، والظلم منتشر، وإهانة البشر متمادية الأطراف. وكان في هادي ذلك الضمير الذي يدرك أنّ المثقف الحقيقي هو المدافع عن مستقبل العراق وأحلام الفلسطينيين وكرامة الأمة العربية. وكان من قلّة من المثقفين تبحث عن غبطة الصدق، قبل أن تذهب الى النوم الذي لا صحوة منه.

رحل هادي حزيناً ومغتبطاً في آن: حزيناً لأنّ أحلامه بقيتْ مبعثرة في الهواء... ومغتبطاً لأنه لم يستنشق هواءً مسموماً قطّ.

ف.د.